

الكاتب المصري



ديسمبر ١٩٤٧

محرم ١٣٦٧

مجلد ٧ - عدد ٢٧

السنة الثالثة

المعذبون في الأرض

الممتزلة

لا أريد تلك الفرقة الاسلامية المعروفة من فرق المتكلمين ، وإنما أريد أسرة مصرية بائسة كنت أنسييت أسرها ، حتى كان هذا الوباء الذي ألم بمصر فذكرتها ذكراً متصلاً ملحا ، وحاولت أن أخلص من التفكير فيها فلم أستطع ، فأردت أن أتسلى عن ذكرها بالتحدث عنها لعل هذا التحدث أن يخرجها من ضميري الخاص إلى الضمير العام ، فيكون في ذلك تخفيف للعبء ، وتفريج للكرب ، وشفاء لبعض ما في النفس . والهموم الثقال تخف إذا شاركت في حملها ضمائر كثيرة ، ولم يقصر ثقلها على ضمير واحد مهما يكن أيّداً قويا ، فكيف إذا لم يكن له حظ من قوة أو أيد !

وأردت أن أهدي حديث هذه الأسرة البائسة إلى المترفين المنعمين في الأرض ، لا لأبغض إليهم الترف بل لأزينه في قلوبهم ، ولا لأصرفهم عن النعيم بل لأرغبهم فيه ترغيباً وأدفعهم إليه دفعا . فقد تحدث الحكماء منذ الزمن الأول بأن الرجل الحازم خليق ألا ينظر إلى الذين يتفوقون عليه ، فتملاؤه قلبه الحسرة ويثقل نفسه بهم ، وأن ينظر إلى من دونه من الناس فيعرف ما آتيت له من حسن الحظ ، ويحمد رفق الله به ، ورعاية الله له ، وإسباغ نعمته عليه ؛ ويستمسك من أجل ذلك بما قسم له من الخير ، ويستمتع من أجل ذلك بما قدر له من النعيم . وأنا أبعد الناس عن التفكير

في أن أرزهد المترفين في ترفهم وأرغب النعمين عن نعيمهم ؛ لأنى أعلم من جهة أنى لن أبلغ من ذلك شيئاً إن أردته مهما أنفق من الجهد ، وبهما أبرع في تدييح القول وتنميق الحديث . ولأنى أعلم من جهة أخرى أن ترف المترفين إنما يأتهم بحكم القضاء المكتوب والقدر المحتوم . وليس من سبيل إلى تغيير القضاء ، أو تبديل القدر ، أو إلغاء سنة الله في الناس . فالله قد خلق الناس على ما نراهم من هذه الفرقة فيما بينهم ، يترف بعضهم حتى يطغيه الترف وينعم حتى يبطره النعيم . ويحرم بعضهم حتى يضيق به الحرمان ، ويشقى حتى يمججه الشقاء . ولأنى أكره بعد هذا وذاك أن أكون كالثعلب الذى حاول أن يصيب العنب ، فلما لم يتح له ذلك عاب العنب وزعم أنه فج بغيض . وقد خطر لى أن أتخذ لهذا الحديث عنواناً آخر ، هو أم تمام . لا أريد به زوج شاعرنا العظيم ، وإنما أريد به زعيمة هذه الأسرة المصرية البائسة ؛ فقد كانت تكنى بأكبر أبنائها . وخطر لى أن أهدي حديث هذه الأم وبنيها الثلاثة إلى البائسين المعذنين الذين مسهم الضر قبل الوباء ، وألح عليهم بعد الوباء حين تحطف الموت أبناءهم وآباءهم وإخوانهم وعائلهم وتركهم نهياً للشقاء ، لا يدرون كيف يتقونه ، ولا كيف يحملونه ، ولا كيف يخلصون منه . لا لأبغض إليهم حياتهم البائسة وعيشهم النكد ، فما ينبغى أن تنبض إلى البائس بؤسه ولا أن تكره إليه شقاه ، وإنما ينبغى أن تحبب إليه البؤس ، ليحتمله وليتزيد منه إن استطاع ، وأن تزين في قلبه الشقاء ، ليصبر عليه ويمعن فيه إن وجد إلى الامعان فيه سبيلاً . فالبؤس قضاء محتوم على البائسين ، كما أن النعيم قضاء محتوم على النعمين . والشقاء قدر مقدور على الأشقياء ، كما أن السعادة قدر مقدور على السعداء . والرجل الحازم العازم الحكيم خليف أن يرضى بالقضاء المكتوب ، والقدر المحتوم ، يحتمل الخير غير زاهد فيه ، ويحتمل الشر غير ساخط عليه . ولأمر ما وُصف الشرقيون بأنهم أصحاب إذعان للقضاء ، واستسلام للقدر ، ورضا بالمكروه . فلنصدق على أقل تقدير قول الغرب عنا وظنه بنا ورأيه فينا ، ليصطنع المترفون الشجاعة ليحتملوا الترف ، وليصطنع البائسون الشجاعة ليحتملوا البؤس ، وليصبر أصحاب الثراء على محنتهم بالثراء ، وأصحاب الحرمان على فتنهم بالحرمان ، حتى ينتهى أولئك وهؤلاء إلى الموطن الذى

لا يكون فيه ثراء ولا حرمان ، والذي لا يكون فيه فقر ولا غنى . والذي لا يكون فيه يسر ولا عسر ، والذي تتحقق فيه المساواة بين الناس جميعاً حين يصيرون إلى تراب كما خلقوا من تراب . ومهما يكن من شئ فقد ترددت بين هذين العنوانين : المعتزلة وأمّ تمام . كما ترددت في إهداء هذا الحديث بين المترفين والبائسين ، ثم آثرت آخر الأمر أن أخير القارى بين العنوانين ، وأن أهدي الحديث إلى الفريقين : ففي حديث هذه الأسرة ما يرضى المنعمين والمعذبين جميعاً . وأى مطعم للكاتب أجل شأنًا وأعظم خطراً من أن يرضى قراءه على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وفي حديث هذه الأسرة البائسة ما يسخط المنعمين والمعذبين جميعاً . وما قيمة الكاتب إذا لم يسخط قراءه على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وأنا أريد دائماً أن أكون كاتباً ذا خطر ، فأرضى قرائى وأسخطهم ، وأسر قرائى وأسوءهم ، وأعجب قرائى حتى يكلفوا بي أشد الكف ، وأغيظهم حتى يمتقنوا أعظم المقت . وأنا زعيم للمترفين بأن يجدوا في حديث هذه الأسرة ما يحب إليهم ترفهم ، فيعضون عليه بالنواجز كما يقال ، ويرضون عنى كل الرضا ، وبأن أصور لهم هذا الترف منكراً بشعا ، ومذمماً بغيضاً ، فيسخطون على أشد السخط . وأنا زعيم للمعذبين بأن يجدوا في حديث هذه الأسرة البائسة ما يعلمهم الصبر على المكروه فيرضون عنى ، وما يلقي في قلوبهم أن حياتهم لا تطاق ، وأن من حقهم أن يخرجوا منها إلى حياة ألين جانباً وأرق ملمساً ، وأن ليس لهم سبيل إلى هذا الخروج ، فيضيّقون بي أشد الضيق ، وأبلغ بذلك كل ما أريد ، وهو أن أرضى القراء وأغيظهم مهما يكن بينهم من التفاوت والاختلاف . فانا لا أريد إلا هذا ، ولا أفكر إلا فيه . وما الذى يعينى من أن يترف المترفون حتى يقتلهم الترف ، ومن أن يشقى الأشقياء حتى يهلكهم الشقاء ! لا يعينى من ذلك شئ ؛ لأنى رجل من أهل العصر الذى أعيش فيه . وأخص ما يمتاز به هذا العصر الذى أعيش فيه الأثرة وحب النفس . فانا رجل أثرة لا أحب إلا نفسى ، ولا أفكر إلا فيها ، ولا أعنى إلا بها . وأنا رجل كاتب لا يعينى إلا أن أملك على القراء أمرهم بما أثير في قلوبهم من رضا وسخط ، وبما أشيع في ضمائرهم من حب وبغض . ولست أزدري شيئاً كما أزدري إلقاء الدروس في الأخلاق . ولست أنفر من شئ كما أنفر

من ترغيب الأغنياء في العطف على الفقراء ، ومن تشجيع الأشقياء على احتمال الشقاء . ما أنا وهذا كله ! إن الناس من حولى لا يذوقون للتضامن طعاماً ، ولا يعرفون للتعاطف قدراً ، لا يحفل بعضهم ببعض ، ولا يفكر بعضهم في بعض ، ولا يأسى بعضهم لآلام بعض ، فمالى أحمل نفسى من الأعباء ما لا يريد الناس من حولى أن يحملوا ؟ وما لى أدفع نفسى إلى هذا الشذوذ الذى لا خير لى فيه ولا خير لأحد فيه ؟ وما لى لا أسير سيرة الجليل ، ولا أعيش عيشة المعاصرين ، ولا أنتفع بقول أبى العلاء :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشياً تجاهلت حتى قيل إني جاهل

الأثرة ، يأسدى ، هى الأساس المتين الذى يقوم عليه نظامنا الاجتماعى البديع ، الذى نفتديه بأنفسنا ونحميه بما نملك وما لا نملك من جهد . فمن أراد الدفاع عن هذا النظام وحياطته وصيانته من أن يعيث به العابثون أو أن تمسه الخطوب بما لا يجب وبما لا يحب ، فليكن أثراً إلى أبعد غايات الأثرة ، محبا لنفسه إلى أقصى آماد حب النفس ، لا يحفل بالناس إلا بمقدار ما يهيئون له من الخير ، وما يحققونه له من المنفعة ، وما يبلغونه من الآراب . فاذا بعدد الأمد بينه وبينهم ، أو خفيت عليه أسرار الصلات التى تجعله محتاجاً إليهم وتجعلهم محتاجين إليه ، فلا عليه من أن ينكرهم إنكاراً ويزدريهم ازدراءً ، ويمضى فى طريقه مستمتعاً بطيبات الحياة ، غير ملق بالآل إلى ما يكتشفهم من الهول ، وما يصب عليهم من الهم ، وما يسلط عليهم من الكوارث والنكبات .

كذلك نعيش ، وكذلك يجب أن نعيش . وأيسر انحراف عن هذا اللون من ألوان العيش عن هذا النظام من نظم الحياة خلق أن يحشمننا أهوالاً ، ويحملنا هموماً ثقلاً . وكيف تستقيم حياتنا إذا عنى أصحاب الترف المترف والثراء العريض بأصحاب البؤس البائس والعذاب الأليم ، فزادوا عنهم بعض ما يشغلهم من البؤس ، ورفعوا عنهم بعض ما يصنيهم من العذاب ، وشغلهم ذلك عن الاستمتاع بلذاتهم والانتفاع بهذه الثمرات الحلوة المرة السائغة الفجة ، التى تأتاهم من بؤس البائسين وعذاب المعذبين ، وشغلهم ذلك عن أن يجتمعوا إلى سحف الحديث حين يرتفع الضحى ،

وإلى سخف المتاع حين يقبل المساء ، وإلى اللهو واللعب حين يتقدم الليل ، وإلى النوم الثقيل حين يهيم الصباح بالاشراق ؟ إذن تفقد الحياة بهجتها ، وتفقد الدنيا زينتها ، ويصبح العيش المصرى كله نكدًا كدرًا منغصًا ، لا صفو فيه ولا عفو ولا جمال . حسبُ الأشقياء أن تعطف عليهم ألسنتنا وتنأى عنهم قلوبنا ، وأن نرث لهم بالقول ونقسو عليهم بالفعل ، ونغلى بينهم وبين أحداث الزمان ونوائب الأيام ، تجرّعهم الآلام غصصا ، وتعلمهم كيف يكون استعذاب العذاب المر ، وإساعة الشر الذي لا يساغ . وأقول هذا كله جادًا لا عابثًا . فالله قادر على أن يمس الأرض بجناح من رحمته ، فيتيح لأهلها جميعًا ما يتمنون من الترف والثراء والنعيم . والله قادر على أن يمس الأرض بجناح من تقمته فيفرض على أهلها ما يكرهون من البؤس والشقاء والعذاب . وما دام الله لم يجعل الناس جميعًا سعداء ، ولم يجعلهم جميعًا أشقياء ، وإنما قسم حظوظهم بينهم على هذا النحو الذي نراه ، فليس لنا وليس علينا إلا أن نرج أنفسنا ، وأن يريج بعضنا بعضا من البوم والنكير والتشريب ، وأن يرضى كل منا بما قسم له من الحظ ، وأن يحقق السعيد إرادة الله في الأرض فينعم بالسعادة كأقصى ما يستطيع ، وأن يحقق الشقي إرادة الله فيغرق في الشقاء إلى كتفيه أو إلى أذنيه ، أو إلى شعر رأسه إن شاء .

وقد يظن القارئ أني قد أسرفت في البعد به عن هذه الأسرة المعتزلة ، وعن حديث أم تمام . ولكنه يخطئ أشد الخطأ إن ظن بي هذا الاسراف . وهبه يصيب كل الصواب حين يظن بي هذا الاسراف ، فليس يعينني من خطئه أو صوابه شيء . وإنما الذي يعينني هو أني أنا لا أعتقد أني أطلت المقدمات أو انحرفت عن موضوع الحديث . فقد قلت إن هذا الوباء الذي ألم بمصر أذكرني من أمر هذه الأسرة المعتزلة ما كنت ناسيًا ، ثم ألح عليّ ذكرها إلحاحًا شديدًا . وأكبر الظن أني لم أذكر هذه الأسرة البائسة ذكرًا متصلًا ملحمًا ، ليقف منها عقلي وقلبي موقف الناظر لها المحدث فيها ، دون أن يثير ذلك في العقل بعض الخواطر ، ودون أن يثير ذلك في القلب بعض العواطف ، ودون أن يشيع ذلك في الضمير بعض الحزن . والكتّاب البارعون في الفن يؤخرون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم

إلى آخر الحديث ، يجعلون من هذا كله عبرة لمن يريد أن يعتبر ، وموعظة لمن يريد أن يتعظ . فيجعلون من أنفسهم أساتذة في الأخلاق ، ومصلحين لنظم الاجتماع ، ويروضون عن أنفسهم بعد ذلك كل الرضا ، ويجهلون أن القارى أشد منهم مكرًا وأبلغ منهم دهاءً ، وأنه يقرأ أول الحديث لما قد يجد فيه من تسلية ، أو لما قد يلتبس فيه من تسلية ، ويترك آخر الحديث لأنه يضيق بدروس الوعظ والارشاد والاصلاح أشد الضيق .

ومن الكتاب البارعين من يشيعون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم في حديثهم كله منذ يبدؤونه إلى حيث يفرغون منه . يتخذون من قصصهم أغشية لهذه المواعظ والعبر ، فيخدعون بذلك بعض القراء عن أنفسهم ، ولكنهم لا يخدعون القراء جميعاً . فلا يكاد الأذكىاء منهم يقرءون حتى يستكشفوا مكر الكاتب ويعرفوا حيلته ، فيقرءون على كره أو يزورون عن القراءة ازواراً . فأنا فقد قلت وما زلت أقول : إني لا أريد أن أعلم جاهلاً ، ولا أريد أن أعظ غافلاً ولا أن أنبه ذاهلاً . فليست من هذا كله في شيء ، لأنى واثق بأن القراء جميعاً علماء لا يمكن أن يرقى إليهم الجهل ، أذكىاء لا يمكن أن تسعى إليهم الغفلة ، متنبهون لا يمكن أن يعرض لهم الذهول . وقلت وما زلت أقول : إني لا أريد أن أخدع أحداً عن نفسه ، لأنى لا أسئ الظن بالقراء ، ولا أنظر إليهم على أنهم أطفال يجب أن يلهوا عن الدواء بهذه الأغشية التى تجنبهم مرارته وكرهاته . فكيف وأنا لا أقدم إليهم دواء ، لأنى لست طبيباً ، ولأنهم ليسوا مرضى ، ولأنى راض عن حياتنا التى نجياها كل الرضا ، مطمئن إليها كل الاطمئنان ، معجب بها أعظم الاعجاب ، لا أريد أن أغير منها قليلاً ولا كثيراً ، ولا أحب أن يتغير منها قليل أو كثير . وأول هذا الحديث يدل فيما أظن دلالة واضحة على أن من المحافظين المتشددين فى المحافظة ، ومن أصحاب اليقين الذين لا يضيقون بأحد كما يضيقون بأصحاب الشمال .

ومن أجل هذا كله اخترت أن أتحدث إلى القراء فى هذا المقال عن أمّ تمام وأسرتها المعتزلة ؛ لأن أمّ تمام كانت تصور المحافظة المياسنة أبرع تصوير وأصدق وأفواه . فهى كانت من أهل الصعيد الأعلى . وأهل الصعيد محافظون كما يعلم القراء ، لم يفسدهم العلم ، ولم تحرف بهم المعرفة عن الطريق

القصد ، ولم تعلّمهم الحضارة وما كثر فيها من البدع أن في الأرض جوراً يجب أن يرتفع عنها ، وأن في السماء عدلاً يجب أن يهبط إلى الأرض ليلاّها أنسا ودعة ورضاء . وإنما هم قوم يعيشون على فطرتهم ، ويرسلون نفوسهم على سجاياها . رأوا الأرض ملعباً لقليل من ملائكة العدل وكثير من شياطين الجور ، فأحبوا أولئك وألّفوا هؤلاء ، ولم يطلبوا من أولئك ولا هؤلاء إلا أن يعضوا فيما استأنفوا من لعب . فان منهم من هذا اللعب خيراً نعموا به ، وإن منهم منه شرٌّ شقوا به ، غير منكرين ولا معترضين ولا محاولين تغييراً ولا تبديلاً . ويقال إن الكاتب يختار أشخاصه على صورته ، وقد يقتطعهم من نفسه اقتطاعاً . ولولا أن أمّ تمام كانت غارقة في البؤس والشقاء ، وسرفرة في الدسامة والقبح ، لقلت إنى أقتطعتها من نفسى اقتطاعاً . ولكنى لست غارقة في البؤس والشقاء ، والحمد لله على كل حال . وسيرى القارىء أن صورة أمّ تمام ليست منى في شئ ، فيدله ذلك من غير شك على أنى لم أخترعها ولم أبتدعها ، وعلى أن خيالى الضعيف الكليل ليس له في حياتها ولا في حياة أسرته أثر ما ، وإنما هى حقيقة واقعة خلقها الله الذى يخلق الحقائق كلها ، والذى يقسم بين الناس حظوظهم من الجمال والقبح ، كما يقسم بينهم حظوظهم من السعادة والشقاء .

وقد كانت أمّ تمام هذه غريبة الأطوار من كل جوانبها ، حتى إنى لا أستطيع أن أختار الطور الذى أبدأ به من أطوارها . وربما كان الخير أن أعرض عليك صورة ضئيلة حقيرة للبيت الضئيل الحقير الذى كانت تعيش مع أبنائها فيه .

فقد كان هذا البيت أشبه شئ بالبقعة القذرة التى تفسد جمال الثوب الجميل النقى . كان ضيقاً في الفضاء أشد الضيق ، منخفضاً إلى الأرض أشد الانخفاض ، قد أقيم من هذا الطين الساذج الذى يخلطه الفلاحون بشئ من التبن والقش ويسوونه تسوية مقاربة ويسمونه في مصر الوسطى « بالطوف » . ثم يجمعون بعض هذه الأطواف إلى بعض حول قطعة من الأرض ، يرفعونها في الجو شيئاً ويمدونها في الفضاء شيئاً ، ويلقون عليها طائفة من سعف النخل أو من قصب الذرة ، ويتخذون لها باباً من خشب رقيق ، فتصبح بيتاً يأوون

إليه ويتقون فيه برد الشتاء وحر الصيف وبطر السماء إن كان من الممكن
لمثل هذا البناء المهلهل أن يقي الذين يأوون إليه برداً أو حرّاً أو مطراً .
وكان بيت أم تمام هذا الصغير الحقير يقوم بين دارين ضخمتين فخمتين ،
أو قل بين فناءين واسعين لهاتين الدارين . وفي كل فناء من هذين
الفناءين قامت أشجار وشجيرات ، بحيث همّ كل فناء منهما أن يكون حديقة
تقوم أمام الدار ، ولكنه لم يبلغ أن يكون حديقة ، فكان شيئاً بين الفناء
المهمل والحديقة التي يمنحها الناس شيئاً من عناية ، ويجدون فيها شيئاً من
راحة وروح . ولم أدر كيف قام هذا البيت الحقير الصغير بين هاتين
الدارين العظيمتين . وقد سألت الناس من حولى عن هذا ، كما سألتهم عن
مقدم أم تمام وبنيتها إلى القرية وإقامتها في هذا البيت ، فلم أجد عند أحد
منهم جواباً ؛ لأنهم كانوا جميعاً طارئين على القرية دعتم إليهم الدائرة السنية ،
ولأن القرية نفسها كانت طارئة على المكان أنشأتها فيه الدائرة السنية ؛ فلم
يكونوا يعرفون من أمر جيرانهم ولا من أمر قريتهم إلا قليلاً أو أقل
من القليل . وكانت سيرة أم تمام وبنيتها تمنع جيرانها من أن يعرفوا شيئاً
من أمرها ؛ فقد كانوا يعتزلون الناس اعتزالاً غير مألوف . ولكن أوان
الحديث عن هذا الاعتزال لم يئن بعد . فقد ينبغي أن تعرف قبل ذلك
أم تمام هذه ، أو أن ترى صورتها على أقل تقدير ؛ فصورتها خليفة أن ترسم .
كانت أم تمام قصيرة مسرفة في القصر ، منحنية مسرفة في الانحناء . همّت
قامتها أن ترتفع في الجوف فلم تستطع أن تستقيم وإنما انعطفت أعلاها على
أسفلها كأنها خلقت لتلتصق بالأرض التصاقاً . وكانت من أجل ذلك أشبه
بذوات الأربع منها بالإنسان ذى القامة المعتدلة والقدر المستقيم . وكانت من
أجل هذا إذا مشيت خيَّلت إليك أنها تتدحرج كما تتدحرج الكرة . وكان
مشيها بطيئاً رقيقاً ، فكان يشبه حركة الكرة عندما تخف عنها قوة الدفع
فتضطرب مبطنة تسعى إلى السكون . وكان صوت أم تمام نحيلاً ضئيلاً ، وكانت
قد فقدت بعض أسنانها ، فكان صوتها النحيل الضئيل يستحيل إذا تكلمت
إلى هواء خافت لا يكاد السامع يتميز حروفه إلا في مشقة وجهد . وكان
يعيش معها في بيتها ذاك الصغير الحقير غلامان ، كاد أحدهما أن يبلغ
العشرين وهو تمام ، وجاوز الآخر الخامسة عشرة قليلاً وهو أبو العلاء .

وكان تمام وأخوه يعملان في البناء ، يحاول تمام أن يكون بناءً ، ويحمل أخوه الطين والماء وغيرهما من الأدوات التي تتصل بعمل البنائين . ويصيب الغلامان من هذا العمل الذي يتصل أحياناً وينقطع أحياناً أخرى ما يتيح لأسرتهم قوتاً يقيم الأود ولا يكاد .

وكانت لأم تمام بنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها ، وهي سعدى التي كان الجمال والدماة يختصان على وجهها وجسمها كله اختصاصاً شديداً : يريد الجمال أن يستخلصها لنفسه مستعينا بقوة الصبا والشباب ، ويريد القبح أن يؤثر بها نفسه مستعينا بالبؤس وما يستتبعه من الحرمان . وكانت الصبية بين هذين الخصمين أشبه شئ بالكرة يتقاذفها اللاعبان . ولم يعرف أحد لهذه الأسرة زعيماً ، بل لم يعرف أحد كيف هبطت الأسرة من أعلى الصعيد إلى هذه القرية من قرى مصر الوسطى . وإنما كان الناس يتحدثون بأن أم تمام قد نهضت وحيدة أو كالوحيدة تنشئ بنيتها الثلاثة وقد لقيت في ذلك جهداً جهيداً ، وعناء شديداً . لم تهبط بهم من صعيدها الأعلى إلى قريتنا تلك إلا منتقلة بين المدن والقرى ، تقيم في هذه المدينة سنة أو أقل أو أكثر ، وتقيم في هذه القرية أشهراً ، وفي هذه القرية أسابيع ، وفي هذه القرية أياماً قليلة أو كثيرة ، حتى انتهت إلى قريتنا تلك ، فأقامت فيها وأطالت المقام .

ولم يكن اسم أم تمام أقل غرابية من كنيها ، بل لم يكن أقل غرابية من جسمها . فأنت إن أردت أن تنطق به كما كان الناس ينطقون به في القرية قلت ست أبوها ، وإن أردت أن تنطق به على أصول اللغة الفصحى قلت سيدة أيها ، أو ست أيها كما كان الناس ينطقون في بعض عصورنا القديمة . وكان هذا الاسم يقع من آذاننا موقعاً غريباً ؛ وكنا ننطق به على أنه كلمة واحدة لا كلمتان ، وكنا نسأل أنفسنا عن معنى هذا اللفظ الغريب .

ولم تحاول أم تمام قط ولم يحاول أحد من بنينا قط الاتصال بالناس إلا حين كانت الضرورة الملجئة تضطرهم إلى ذلك اضطراراً . فقد كانوا يحتاجون إلى أن يشتروا الطعام ليقيموا أودهم . وكانت أم تمام تحتاج أحياناً إلى أن تباع ؛ فقد كان يعرض لها في بعض الوقت أن تخرج إلى الطريق الزراعية العامة ، وأن تتلقط من هذه الطريق روث البقر والجاموس تقطعه قطعاً

مستقاربة ، وتحففه على سقف بيتها ، وتتخذ منه وقوداً لتطبخ إن أتيح لها أن تطبخ ، وتبيع فضله بين حين وحين لبعض نساء القرية بالقرش أو بعض القرش ، توسع بذلك على نفسها وعلى بنيتها . ولم يخطر فيما أعلم لأحد من الموسرين ولأهل الدارين اللتين كانتا تكتنفان بيتها أن يبروا هذه الأسرة بقليل أو كثير من الخير ؛ لا لأن الموسرين كانوا يدخلون بالمعونة على الذين يحتاجون إلى المعونة . بل لأنهم في أكبر الظن قد همّسوا أن يبروا هؤلاء الناس فردوا برّهم عليهم في شيء من التعفف الذي لا يجب من الفقراء . فكفّ الموسرون عن محاولة الرفق بهم والتوسيع عليهم في الرزق . وأمثال أم تمام في القرى يوسعن على أنفسهن وعلى أبنائهن وأزواجهن أحياناً بالعمل في دور الموسرين والأغنياء ، يكسبن من هذا العمل قوت أنفسهن وفضلاً من خير يحملنه إلى البيوت ، فيأكل الجائع ويكتسى العريان ويدوق المحروم شيئاً من طيبات الحياة .

ولكن أم تمام لم تحاول شيئاً من ذلك ولم تفكر فيه ، وكأنها قد خرجت على ابنها أن يحاولا بعض ما يحاول الشباب الفقراء من الاتصال بشباب الأغنياء وأصحاب السعة . فلم يكن الغلامان يشاركان في لعب ولا في جد . وربما رآهما الرءاؤون وقد جلس كل منهما إلى أخيه يخططان في الأرض أو يلعبان لعبة «الطاب» . وكذلك نظر أهل القرية إلى هذه الأسرة على أنها أسرة غريبة ثقيلة سمجة ، ليست منهم وليسوا منها في كل شيء . وكان أهل القرية مع ذلك يتحدثون فيما بينهم عن هؤلاء الناس في إشفاق كثير لا يخلو من سخرية ، وربما يقسو — إن أمكن أن يكون الإشفاق قاسياً — فيشتمل على شيء من شماتة . كانوا يرون هذين الغلامين يحتملان أشد العناء وأشق المشقة ليكسبا القروش القليلة في بعض الأيام ، ويتساءلون كيف تعيش هذه الأسرة من هذا الكسب القليل . وكانوا يرون هذين الغلامين وقد بليت ثيابهما فكشفت عن مواضع من الجسم من حقها أن تستر ، ورقعت حتى ملت الترقيع . وكانوا يرون الصبية سعدى في أسماها البالية ، فيرحمون هذا الصبا النضر في هذا الغشاء المتبدل . ويقول بعضهم لبعض لولا الكبرياء لأصاب هؤلاء الناس عيشاً أرق رقة وألين ليلاً . أما أم تمام فلم يرها أحد قط إلا ملتفة في شقتها السوداء تندرج على الأرض حين تشرق الشمس ساعية إلى الطريق العامة ، وتتدحرج

على الأرض حين يرتفع الضحى أو ينتصف النهار ، حاملة ما جمعت من روت . وربما رآها الرءاون متبذلة على سقف بيتها تقطع الروث وتسويه ، فأوا منظرًا بشعًا وشكلًا مخيفًا .

ويقبل الوباء ولما يبلغ هذا القرن من عمره سنتين . ويلم الوباء بالقرية فيما يلم به من المدن والقرى . ويفجع الناس في أنفسهم وأبنائهم وذوى قرباتهم ومحبتهم ، وتكون أم تمام في طليعة الذين يفجعهم الوباء ؛ فهو يختطف ابنها جميعًا في أقل من خمسة أيام . وهى مع ذلك هادئة ساكنة مطرقة يجسمها كله إلى الأرض ، لا يرتفع لها صوت بالاعوال ، ولا ينخفض لها صوت بالنحيب ، وإنما هى مقيمة فى بيتها ، وقد آوت إليها ابنتها كأنما تنتظران أن يلم الوباء بهما ويختطفهما كما اختطف الغلامين . ولكن الوباء قد أرضى حاجته من هذا البيت فهو لا يعود إليه . فإذا طال انتظار أم تمام له فى غير طائل ، نظر الناس فإذا أطوارها قد تغيرت من جميع جوانبها ، وإذا حياتها قد بدلت تبديلاً ؛ فهى لا تألف بيتها ولا تحب الاستقرار فيه ، وإنما تمسك فيه الصبية وتخرج عليها أن تخرج منه ، وتطلق هى مع الشمس المشرقة لتعود إلى بيتها وابنتها حين ينشر الليل ظلمته على الأرض ، ويسعى الموت والمرض مستخفين إلى البيوت .

كانت أم تمام تخرج من بيتها حين تشرق الشمس ملففة فى شقتها السوداء مطرقة يجسمها كله إلى الأرض . فتقف أمام بيتها وقفة قصيرة تستقبل الغرب ، وترفع رأسها فى تكلف شديد إلى السماء ، وتمد بصرها أمامها ثم تلتفت إلى يمين وإلى شمال ، تجذب الهواء بأنفها جذباً إلى أنفها ، كأنما تحاول أن تتنسم رائحة خفية ضئيلة ، وقد كانت بالفعل تتنسم رائحة الموت ، ثم تندفع إلى يمين أو إلى شمال ، ثم لا يراها الناس أثناء النهار كله إلا فى دار من هذه الدور التى ألم بها الموت وقام فيها المأتم يندبن ويبكين . وكانت أم تمام تصل إلى هذه الدار أو تلك فلا تقول لأحد شيئاً ، ولا تلقى إلى أحد سماعاً ، وإنما تقصد قصد المأتم الباكيات ، وتجلس حيث ينتهى بها المجلس ، لا ترفع صوتاً باعوال ولا تخفض صوتاً بنحيب ، لا تلطم وجهها ولا تخمش صدرها ، ولا تصنع صنيع أحد من هؤلاء النساء ، وإنما تجلس ساكنة منعطفة على نفسها ، كأنها قطعة من صخر قد سويت على عجل ونحت

في غير نظام ، وفاض من عينيها دمع غزير غير منقطع ، كأنه بعض تلك الينابيع الضئيلة التي يتفجر عنها الصخر في الجبال . حتى إذا بلغت حاجتها من البكاء في هذه الدار تركتها إلى دار أخرى ثم إلى دار ثالثة ، وما تزال كذلك حتى ينقضى النهار لا تسلم أحداً ولا يكاد يكلمها أحد ، ولا ترد على الذين كانوا يكلمونها رجع الحديث . أكانت تبكي ابنيها ؟ أكانت تبكي أبناء تلك الأسر التي كانت تلم بها ؟ أم كانت تبكي صرعى الوباء جميعاً ؟ أم كانت تبكي نفسها وابنتها بين الذين لم يصرعهم الوباء ، وكيف كانت تعيش ، وكيف كانت تتيج لابنتها الصبية أن تعيش ؟ لم يستطع أحد قط أن يعرف من ذلك قليلاً ولا كثيراً . لم يحاول أحد أن يُعَينها ، ولم تحاول هي أن تستعين بأحد ، وإنما أنفقت أيام الوباء تنسم ريح الموت حين يسفر الصبح ، وتسفح دموعها في منازل الموت أثناء النهار ، وتعود إلى بيتها وابنتها حين يقبل الليل . وتنجلي عمرة الوباء ، وتخرج أم تمام من بيتها مع الصبح أياماً وأياماً ، فتستقبل بوجهها الغرب تنسم ريح الموت فلا يحملها إليها النسيم ، فترجع أدراجها وتدخل بيتها وتغلق من دونها الباب ، ولا يراها النهار إلا حين تخرج مع الصبح لتتنسم ريح الموت . ويرأها بعض أهل القرية ذات يوم وقد خرجت قبل أن يرتفع الضحى ، وأخذت بيد ابنتها وجعلتا تسعيان في بطاء نحو الغرب ، فيقول بعضهم لبعض : هذه أم تمام قد ملت البطالة ، وسئمت السكون وشق عليها وعلى ابنتها الجوع ، فخرجتا تلتزمان الرزق وتبتغيان من فضل الله . ولكن النهار لا يكاد ينتصف حتى يأتي نفر من الفلاحين يحملون جثة قد شاع فيها الموت ، وجثة أخرى تمتنع على الموت امتناعاً . قد رأوا أم تمام تغرق نفسها وابنتها في القناة الابراهيمية ، فأسرعوا إلى استنقاذهما ، ولكن الموت سبقهما إلى الشيخة وسبقوه هم إلى الصبية . وقد دفن أهل الخير أم تمام ، وآووا سعدى ، في هذه الدار أياماً وفي تلك الدار أياماً . ولكن سعدى خرجت من الماء بلهاء ليس لها حظ من عقل ولا نصيب من صواب ؛ فهي ثقيلة على الذين يؤونها ، بغیضة إلى الذين يضيفونها . وما هي إلا أسابيع حتى تلفظها الدور والبيوت ، وإذا هي مشردة تسعى ما استطاعت السعى ، وتسكن حين تضطر إلى السكون تراها في هذا الشارع من شوارع القرية مصبحة وفي هذا الزقاق من أزقتها ممسية ، وتراها بين ذلك في الطريق

العامة تسعى سعيًا رفيقًا كأنها السلفاة ، أو تعدو عدوًا سريعًا كأنها الأرنب . وقد تراها أحيانًا جالسة على شاطئ القناة تنظر إلى الماء كأنها تريد أن تغوص فيه ، أو تنظر إلى السماء كأنها تريد أن ترقى إليها . وعرف الناس سعدى البلهاء ، ونسى الناس أم تمام ، وجعل الناس ينظرون إلى سعدى البلهاء كما ينظر أهل الريف إلى أمثالها ، يعطفون عليها حينًا ويضحكون منها أحيانًا ، يرثون لها مرة ويقسون عليها مرات .

وسعدى البلهاء على ذلك تعيش وتشب ويستدير جسمها ويستقيم قدها ، ويسخر البؤس منها فيلقى على وجهها مسحة من جمال ، وهي على ذلك حمقاء خرقاء لا تحسن أن تعمل ولا تحسن أن تقول ، ولا تستقر في مكان ، وإنما هي متقلبة بين القرى : ترى في هذه القرية يومًا وفي تلك القرية يومًا آخر ، وقد ترى في هذه القرية مصبحة وفي القرية المجاورة من قرب أو من بعد ممسية . ولكن أهل القرية يرونها ذات يوم فيرون منظرًا عجبًا من شأنه أن يمزق القلوب حزنا ويفرق النفوس حسرة وأذى . يرون هذا المنظر المؤذى البشع البغيض ، فلا يثير في نفوسهم رحمة ولا يجرى ألسنتهم بكلمة رثاء ، وإنما ينظرون ثم يتضحكون ثم يتبادلون هذه الألفاظ الغليظة التي تصور سخرية أهل الريف ، لأنهم يرون سعدى البلهاء تسعى ويطنها يسعى بين يديها ، قد عبت بها غول من أغوال الطريق فوضع في أحشائها جنينًا . وهي بلهاء لا تفرق بين الغول والرجل ولا بين الملك والشیطان ، ولا تعرف ما يراد بها ولا تعرف ما تريد إن كان لثلاثها أن تريد .

أين مضت سعدى بهذا الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها ؟ أتيح لهذا الجنين أن يرى النور أم لم يتح له أن يراه ؟ ما خطبه وما خطب أمه ؟ لن أحدثك من أمرهما بشيء لأنني لم أعرف من أمرهما شيئًا . وإنما حدثتك بما وقف عنده علمي ، فقد ارتحلت عن القرية قبل أن تبلغني أنباء الجنين وأمّه البلهاء ، ثم شغلت عن الجنين وعن أمّه البلهاء وأنسيت أم تمام وابنيها . وتقلبت فيما شاء الله أن أثقل فيه من شؤون الحياة خمسة وأربعين عاما . ثم أعود إلى مصر بعد غيبة عنها قصيرة أو طويلة ، فأجد فيها الوباء ، وما هي إلا أن أذكر أم تمام وابنتها سعدى البلهاء وما هي إلا أن أسأل نفسي أيمكن أن يجد الوباء الحديث ما وجد الوباء القديم من حال أم تمام وأشباه أم تمام ؟

يقال إن شؤون مصر قد تغيرت ، وإن حياة مصر قد صلحت فيما يقرب من نصف قرن . ولكن شؤون مصر التي تغيرت ، وحياة مصر التي صلحت لم تمنع الوباء من أن يحدد عهده بزيارة مصر . فمن يدري ! لعل تغير الشؤون وصلاح الأحوال ورق النظام الاجتماعي والسياسي ، لا يمنع من أن توجد في قرية من قرى مصر العليا أو من قرى مصر السفلى ، أو قريباً جداً من القاهرة ، أسرة معتزلة كأسرة أم تمام .

في مصر